الفصل السابع

بيشة[١]

ينطلق الطريق فوق سهل واسع يكسوه نبات النصي وعليه شجيرات الطلح. تنحدر الأرض ناحية الجنوب وناحية الشرق وتنحدر المصبات من المرتفعات البعيدة ناحية الغرب إلى أربعة مجارٍ هي- خُمده وخدان، وخندان، ووادي المياه، والراشدة، بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب وذلك أثناء عبورنا لها.

تتقارب ثلاث المجاري الأولى تدريجياً وتتحد في النهاية مع الأخير، الذي ينطلق إلى وادي بيشة خلال فجوة ذات حجم معتبر. تقع السلسلة الجبلية المنخفضة الطويلة المكوّنة من الفرعة- على الجانب الشمالي- ومن تل قائم يسمى شمت العرضة، وهذا ينتمي لنظام التلال الجنوبية التي تملأ الأرض الواقعة بين طريقنا ما وراء الراشدة، وبين مجرى بيشة. كان وادي المياه هو الوادي الوحيد من بين خطوط التصريف هذه الذي واجهتنا فيه بعض المتاعب، فقد كان كثير الأشجار، مما اضطرنا إلى سلوك طريق آخر غير مباشر لتحاشي جذوع الأشجار. انتهى بنا منحدر خفيف من بازلت خشن، فيما يلي وادي المياه، إلى حد يفصله عن شعيب الحاوي والذي يبدو أنه الجزء الأكثر ارتفاعاً لشعيب رشيدة. وحيث إننا كنا قد وصلنا إلى هذا الموقع من جهة الجنوب، فهو هنا يستدير شرقاً تجاه الفجوة، يقع دربنا الآن فوق الحاوي وهو وادٍ يصل عرضه إلى الميل الواحد، وبه شجيرات تتجمع بين منحدرات منخفضة حتى سفحه، ويمتد إلى مسافة عشرة أميال إلى

(١) انظر أيضاً الفصل الثاني. (المؤلف). ولمزيد من التفصيلات عن بلاد بيشة، انظر: ياقوت، **معجم**، جـ١، ص٥٢٩، العواجي، **بيشة**، ص٧٦ وما بعدها.

جانب سلسلة جبليـة ترافقه وتميز بنقطتين بارزتين ومرتفع منخفض بـينهما. كانت الساعـة الخامسة مـساء عندما وصلنا إلى هذا الموقع وقـررنا أن نعسكر فيه لقـضاء الليلة، بعد رحلة قطعنا خلالها أثناء النهار (٤٦) ميلاً.

ارتفعت قـمم الحاوي إلى علو (٢٠٠) قدم فـوق مستـوى الوادي وسيطرت على منظر عـريض. كانت آخـر التفـافاتنا وإلى البـعيد فـوق الدروب إلى الرأس المضجر لخشم الكـور الذي يقع ناحية شرق الشمال الشرقـي- على بعد (٣٤) ميلاً-. كانت قمة خضعة هي أقـصى معلم أرض يمكن لنا رؤيته. وظهر، قريباً منا، ورك منيرة مرة أخـرى، كسمة بارزة للسلسلة الجـبلية التي تمتد أمامنـا، كما يمكن رؤية جمعـور وهو جبل منخفض أسود يقف على الجانب الأيمن لوادي بيـشة من فوق واحة الجنينة.

وقف جبل صدعه العالي، ناحية الجنوب الغربي، بقممه الثلاثة وكأنه حصن خارجي للسلسلة الجبلية الغربية الرئيسية (الحـجاز، حقيقة)، التي ابتعدت عنا مدة طويلة وانفصلت بالصخور البركانية وجـبال منطقة أخرى، غير أنها، وحتى الآن، تشاهد على البعد كـأنها ساحل بعيد. كانت سلسلة جـبال أبا الغربان ووادي المياه جزءاً من السلسلة الجبلية نفسها برغم أنها ليـست مهيبة مقارنة بصدعة والتي لا بد وأن ارتفاعها كان لا يقل عن (١٥٠٠) قدم أو أكثر من فوق موقعنا.

لاحظنا في الـصبـاح آثاراً جـديدة لـلذئاب في أبي الدفـوف بـالقـرب من معسكرنا، وقـد سبق لي أن أشرت إلى ملاحظة الغزلان الثـلاثة. لم نر وباستثناء الجمال التي كانت ترعى في سهل خشرم ومرافقـيها، إلاَّ أثراً ضعيفاً للحياة خلال هذه الرحلة. طارت حـبارى من أمـامنا في شـعيب الحـاوي وهي فزعـة ونما إلى

أسماعنا صوت بلبل غير أننا لم نر الطائر نفسه وفي غير ذلك، فحتى دنيا الطير كانت شحيحة فهي قليل من يمام الصحراء، وقنابر والصرد. ويبدو بوضوح أن البلاد التي مررنا فوقها في المراحل الأخيرة خلال مسيرة اليوم لم تنل نصيبها من الأمطار الأخيرة، والتي ربما لم تمتد جنوباً إلى أبعد من خشرم.

كشف دليلي عن معرفته لجغرافية بلده، وبأنه متعلم، غير أنه الآن بدأ يفقد عمقه في هذه المنطقة «الأجنبية». ولحسن حظي فقد كنت ملماً بدرجة معقولة ببلاد بيشة وكانت خرائطي الخاصة لعام ١٩٣٢م مفيدة لي.

كنا لا نزال بالفعل في منطقة سبيع التي تمتد إلى شريط شعيب ذي خشا الذي يقع أمامنا، وهو رافد لوادي بيشة والذي ينضم إليه في أقصى جنوب سلسلة جبال ثملا. وينحدر حتى ذي خشا وينحدر من عند الجبال التي تقع إلى الجنوب من كتلة صدعة. يخرج مجرى آخر من جانبه الشمالي ليعترض ممرنا لعدة أميال إلى ما وراء تل الحوي ليتحد مع ذي خشا على الجانب القريب من ثملا. تسمى التلال الواقعة إلى الشمال من مخرج قمة ذهب، في مجملها، باسم كور البريحه- بريحة تصغير برحة-، وصدعة، وأم فرقين وكتل مرتفعة أخرى كلها كانت استمراراً جغرافياً لهذه السلسلة الجبلية، وعليه فهي ليست جزءاً مكملاً لحاجز الحجاز الرئيس، الذي يقع ناحية الغرب. جرى طريقي لعام ١٩٣٢م بين الكتلتين الاثنتين فوق بلاد ذات تلال سفحية منخفضة.

لا يوجد ما يثير الاهتمام لهذا الوادي الرملي العظيم المطعم بالشجيرات والذي من خلاله يشق هذان الواديان طريقهما، غير أننا رأينا زوجاً من الغزلان في الصباح الباكر وكذلك السحلية الورل، والتي برغم أنها كانت مجروحة، إلاَّ أنها

تمكنت من الهرب إلى جحرها. وصلنا إلى منطقة قحطان فيما يلي ذي خشا، وهي أشهر قبائل العرب وأكبرها وربما تكون من جوكتان «سفر التكوين»[١]. مررنا في الطريق بهضبة جرانيتية أوحى لي شكلها بالانطباع لأسد مضطجع. تسلقنا هذه الهضبة، ما عدا كتلة على رأس الأسد لا يمكن تجاوزها ذلك لغرض المنظر العام واستكشاف كهوفه التي نحتتها الرياح، وقد تسبب دخولنا في إزعاج مجموعة من الخفافيش. كما لاحظت زوجاً من حجل الصخور (سيسي) وإلى جانب ذلك قمت بإدخال الدرسة إلى الحقيبة. كما كانت هنالك يمامات صحراوية وصقر يحلق لعله يتفقد ما يحدث. وإذا اعتبرنا صغر حجمها، فإن هذه الصخرة تعج بالسكان.

دخلنا إلى شريط كثير الرمل، مباشرة بعد مواصلة الرحلة إلى ما يلي هذه الصخرة، تخترقه من الغرب إلى الشرق جداول عديدة لوادي تبالة والذي به مجموعة قرى عالية بالقرب من سفحه في الجبال، وهو ينحدر إلى السهل ليتحد مع وادي بيشة فوق هضبة جمعور. كانت هنالك أربع برك أكثرها مهابة كانت الثالثة[٢] التي يعلمها شريط كثيف من شجيرات غضا جيدة النمو وبعض شجيرات الطرفاء القزمية. وصلنا بعد أميال قليلة من هذا الموقع، إلى الديلمي

(١) عمل بعض المستشرقين على ربط بعض مناطق ومدن الجزيرة ببعض الأسماء التي وردت في التوراة، وهذه إحدى المحاولات التي لا تقوم سوى على التشابه اللغوي بين الأسماء. ويرى بعض الدارسين أن اسم قحطان ذكر في التوراة باسم يقطان، والمقصود هو قحطان الموغل في القدم وليس قحطان القبيلة المعاصرة. (ابن جريس).

(٢) استناداً إلى معلومات أخرى وصلتني أخيراً، فهذا المجرى ليس تبالة ولكنه خليج، ينساب الأول إلى وادي بيشة عند الصبيحي فوق الديلمي ولذلك فهو لا يعترض طريقنا بالمرة. واستناداً إلى المعلومات نفسها فإن ذي خشا يجب أن يكون نصيفه (Nasif)، في رأيي، وأين ذهب ذي خشا لا أدري أي الصور هي الصحيحة. (المؤلف).

وهي قرية ذات مزارع نخيل على الجانب الأيمن لوادي بيشة. كنا قد قطعنا (٣١) ميلاً ولا يزال الوقت مبكراً، غير أننا قررنا أن نمكث هنا حتى الغد ليكون لدينا حينها الوقت الكافي لنواصل الرحلة إلى الروشن، عاصمة بيشة التي تقع فقط على بعد عشرة أميال.

ما يثير الاهتمام بمستوطنات بيشة هو اقتحام عناصر شهران لها منذ عهد قديم، وهم الذين يكون موطنهم الصحيح في الجبال إلى الغرب من مجرى بيشة وهي أراضٍ تابعة لقحطان. بدا العنصران وكأنهما متحابان، غير أنه من الغريب أن نجد أن القادمين ليسوا على الشاطئ الأيسر وهو الأقرب إلى بلادهم، ولكنهم على الجانب الآخر من النهر، حيث يحتلون قرى الدحو، وحريرة، والصبيحي، وقنيع وغيرها[1]. كل قرى ضفة الوادي اليسرى يمتلكها أكلب (بني كلب) مجموعة من قحطان.

يخترق طريق السيارات قرية الديلمى وكان معظم موقع القرية على بعد (٢٠٠) ياردة إلى اليمين، بينما يقف إلى اليسار قصر منعزل بمبانيه الإضافية العادية. تسمى القرية الرئيسة العطف أو عطف الديلمى، محتفظة بالاسم الأصلي لملاك أرضها وهم القسم الديلمي لأكلب، يوجد في اتجاه أسفل الوادي، على الجانب نفسه، وتقريباً في استمرار مع الديلمى مزارع نخيل عطف الجبرة- قسم آخر من أكلب- كما توجد قريتان صغيرتان تسميان الدّواره والسقيفة. قضيت معظم فترة الظهر في هذه المنطقة، متجولاً باحثاً عن الطيور ومتحدثاً مع من

(١) هذه تضم الروشن وغران والنغيله والحرف - على جانب الوادي الأيسر- كلها في اتجاه الوادي عدا الرقيطاء فهي في اتجاه أعلى الوادي بالنسبة للدحو. (المؤلف)

أقابلهم من الناس أثناء أدائهم عملهم في مزارع النخيل أو في الحقول. أخبرني أحدهم أنه قبل حوالي (١٥) شهراً وقع سيل عظيم دخل الوادي وملأ المجرى من عند حافة حزام النخيل في الديلمي والجبرة إلى السلسلة الصخرية التي تكوِّن جانب الوادي المقابل. ويقولون إن هذا الوادي ليس بالجاري، بمعنى أن مياه السيول تنساب بعيداً عنه ولا تتسرب إلى حوضه لتكوِّن أنهاراً تحت أراضيه، كما هو الحال في رنية والخرمة وتربة. وبناء على هذا القول، فإن قرى بيشة لا تعاني من حمى الواحة التي تعم الثلاثة الأخريات- وتوجد على أي حال- عدة برك معتبرة للمياه في هذا الجزء من المجرى نتيجة الأمطار الأخيرة، غير أنه لم تكن هنالك سيول كبيرة تذكر.

تقع قرية الدحو بأشجار نخيلها القليلة على أرضها المرتفعة إلى حد ما، في مقابل الجبرة عند منحنى سلسلة صخرية، وكان الجانبان في وقت من الأوقات- ليس بالزمن البعيد- يتحاربان من حين لآخر بأسلوب قبلي قديم. قال أحد محدثي من الجبرة مشيراً إلى الدعوة السلفية لعام ١٩١٠م وما يليها: «قبل أن نصبح كلنا مسلمين، كنا وهم دائماً في حروب، ولكن الآن-ونشكر لابن سعود- لقد أطل السلم بيننا لزمن طويل. الحمدلله! الحركة السلفية بالكاد وصلت إلى بيشة قبل العشرينيات[1]. أشار محدثي وهذا أدهشني، إلى شهران بأنهم قسم لقحطان وأكد وبفخر أن أكلب فرع من تغلب وأن شهران اشتقت من أصل قحطاني وأن هذا القسم الأخير تمتع باستقلالية كبيرة، وحقيقة فهو يتمتع بمرتبة قبلية كاملة، بينما لم تعد قبيلة تغلب حية، اللهم إلاَّ في شجرة نسب سلالاتها

(١) دون شك أن انتشار الدعوة السلفية إلى بيشة وغيرها من أجزاء الجزيرة العربية نتج عن ذلك تصحيح الكثير من مفاهيم الناس الدينية فصاروا يوحدون الله (عز وجل) ويتركون كثيراً من الشركيات والمعتقدات الخاطئة. (ابن جريس).

الذين يدينون بالولاء للقادة القحطانيين[١]. ذكر لي محدثي إلى أن أكلب يملكون قرى بيشة وهي: الجنينة، وعْصَلان، والشقيقة، والنقيع، والجبرة، والديلمي كما استقروا كذلك في الثنية في المرتفعات العليا لتبالة.

يبدو أن أهل الديلمي فقراء، ومكوثنا في وسطهم مكرمة من عند الله لهم، وكان ذلك لأنهم تحصلوا على مبلغ جنيه استرليني واحد دفعناه مقابل تموينهم لنا بالبيض والدجاج والخضراوات، أو بالاستجداء، أو في حالة مساعدة الأطفال لي في أبحاث الطيور التي انتعشت بسببهم. كانت جائزتي الكبرى هي الحصول على بومه سكوبس والتي أطلق عليها المتحف البريطاني فيما بعد اسم (Ots Scops Pamelae). أحضر لي أحد المواطنين أربعة منها وأحضر لي كذلك ثلاثة من بوم الحظائر، وجرذاً واحداً وعدداً من الجرابيع. وقد كانت آكلات النحل في وفرة بين أشجار النخيل، وهي تعشش هنا بلا شك، وذلك لأنه قد أحضر لي فرخ صغير لم ينبت نصف ريشه بعد إلى جانب بيض لبعض العصافير في مرحلة مماثلة من النمو. كانت طيور الهدهد والبلبل أيضاً شائعة وكذلك يمام النخيل طويل الذيل. أضفت إلى مجموعتي حيوان الورل وكان عليَّ أن أستغني عن خدمات صبية لم أكافئهم على ما أحضروه لي من الطيور التي اصطادوها وذلك لأنهم مثلوا بها بتحطيم أجنحتها أو بنزع ريش الذيل[٢].

---

(١) لقد خلط فيلبي وبعض رواته في أنساب قحطان وشهران وتغلب، والمعروف أن قبيلة شهران العريضة تُنسب أساساً في قبائل خثعم، وبلاد شهران وخثعم المعروفة اليوم تأتي مواطنها إلى الشمال من بلاد قحطان التى من حواضرها الرئيسة: سراة عبيدة، وظهران الجنوب، وأحد رفيده وغيرها من المراكز. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أسماء بعض الطيور والحيوانات المتواجدة في منطقة بيشة، انظر: العواجي، **بيشة**، ص٤٥ ــ ٥٠ . (ابن جريس).

تجمع حشد كبير من الرجال والنساء والأطفال في الحديقة الجميلة التي نصبنا فيها معسكرنا لكي يقوموا بوداعنا في صباح اليوم التالي وقد جلبوا لنا اللبن والبيض والخضراوات على أمل أن نشتري منهم عند آخر لحظة. يبدو لي أن الديلمي، بناء على جهاز قياس الارتفاع غير السائل أنها عند الارتفاع نفسه فوق سطح البحر الذي تقع عليه رنية، والتي تبعد عنها حوالي (١٠٠) ميل. عبرنا الوادي على طريق مائل لنصل إلى نهاية السلسلة الصخرية المقابلة، ولم تواجهنا صعوبة في العبور، لم تكن هنالك مياه في مجرى السيل الأصلي عند هذا الموقع، حيث كان عرض الوادي (١٠٠) ياردة، وكان القاع الطيني متيناً. اكتسى معظم بطن المجرى بأشجار طرفاء قصيرة وبنبات الشار ذي السائل اللبني. وصلنا إلى الجانب الآخر فوق الحريرة حيث رافق طريق السيارات درب الجمال القديم عن قرب على الجانب الأيسر للروشن ذلك الدرب الذي كنت قد سلكته عام ١٩٣٢م. لم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا إلى باب قصر الحاكم وتمت إقامة معسكرنا في مزرعة النخيل الجذابة، التي تقع خلفه.

يُعرف مقر إقامة الحاكم رسمياً باسم قلعة بيشة، برغم أنه يشار إليه عادة وباختصار بالقصر. يقع القصر بجوار حلة الروشن ولكنه يقف في منأى عنها في أرض واسعة مكشوفة. كان الحاكم آنذاك (١٩٣٢م) هو عبدالله بن معمَّر، رجل جذاب ولكنه غير مسرف في الكفاءة وهو سليل أسرة آل معمَّر ببلدة العيينة في وادي حنيفة. تولى بعده، بعد عدة سنوات محمد بن جبرين[1] من الرياض ثم تنازل، بعد فترة قصيرة لم تكن ناجحة جداً، إلى محمد بن عبيكان أيضاً من أبناء

(١) الصواب أنه سليمان بن عبدالله بن جبرين من القويعية وليس من الرياض. (ابن جريس).

احد تابعي الأمير فيصل المقربين. وحدث هذا التغيير في يناير ١٩٣٦م، فقد كان يشغل وظيفته مدة خمسة شهور فقط. كان يعرفني من قديم ماءل في محبة عن زوجتي مستخدماً اسمها المسيحي وكان قد قابلها أثناء زيارتنا لمعسكر الأمير فيصل في عشيرة في طريقنا من الرياض في ديسمبر الماضي.

استغل الملك هذا التغيير للأمير ليجري عملية غربلة للموظفين القياديين في بيشة ليفسح المجال لبداية جديدة. لهذا فقد صاحب ابن عبيكان حين وصوله تعيين قاضٍ جديد ومدير جديد للزكاة. كان الأخير هو سليمان بن إبراهيم الرّواف من أسرة ذات علاقات وأملاك في العراق والذي كنت قد قابلته في عام ١٩١٨م في القصيباء أثناء حملة ابن سعود الأولى ضد حائل. كان القاضي هو محمد بن الشيخ، اسم العائلة هذا يدل على أنه سليل مؤسس الدعوة السلفية، الشيخ محمد بن عبدالوهاب. الذي لا يشبهه هذا الحفيد إلا في القليل. كان ضعيفاً ومصاباً بالأنيميا (بفقر الدم)، ويتحدث بصوت صديري ولكنه برغم هذا كان ذكياً، وكان شخصاً لطيفاً للتحادث معه. ولا يبدو بالتأكيد أنه مرتاح لمركزه المنفي في هذه المحافظة النائية، التي لم تكن حتى مرتبطة بلاسلكي في ذلك الوقت، مع بقية العالم.

كان ابن عبيكان أنيقاً في تخير ملابسه وكان جميلاً بشكل مدهش مع صورة جاذبية إغريقية ولحية سوداء معتنىً بها تغطي جانبي الوجه والحنك. كان كرمه نموذجاً للأحسن في شبه الجزيرة العربية، وكان يبذل أقصى إمكانياته ليجعل إقامتنا مريحة إلى أبعد حد. كان مصراً علينا أن نشغل منزلاً لأجل أن ننال راحة أكثر، ولكنه رضخ لتوسلاتي وسمح لنا بأن ننصب معسكرنا في مزرعة النخيل، والتي وضعها تحت تصرفنا، كانت مزرعة قريبة من القصر ورائعة.

عدت إلى المزرعة للراحة بعد الغداء الممتاز الذي قدم لنا عند المقابلة الأولى مع الأمير. لقد سمح لي بالمناسبة أن استمتع بأخذ حمام في حمامه الخاصة الملاصقة لغرفة جلوسه الخاصة، المؤثثة في رفاهية، والمفروشة بالسجاجيد والمزينة بتصميمات هندسية بأحبار وألوان مختلفة على كل الجدران. هذا الضرب من الزخرفة مميز للبلاد حول أبها وهو عادة من اختصاص النسوة في تلك الأجزاء، لا بد أن يكون بعضهن فنانات أصيلات. تم تزيين هذه الغرفة بواسطة فتاة من الرقيق جلبها الأمير عبدالله بن معمَّر من أبها عندما كان حاكماً هناك، وبلا شك كان هو ومن جاؤوا بعده يملأون أوقات فراغهم في هذه الغرفة في دعابات لطيفة. سنرى الكثير من هذه الزخرفة أثناء تحركنا تجاه الجنوب[1].

نمت في العراء تحت ظل شجرة نخيل كبيرة منتشرة وعليها ثمر عظيم أخضر غير مستوٍ وهو يتساقط من حولي منها ومما جاورها من أشجار وله صوت مكتوم، ثقيل حينما يرتطم بالأرض. لفت هذا نظري لغرابته لأن تجربتي تؤكد لي أن ثمار البلح لا تتساقط ولو كان ناضجاً. ولم أجد سبباً يفسّر لماذا يتساقط الآن وبهذه الطريقة وهو لم يزل أخضر؟ عرضت هذا الأمر على خبير في وقت لاحق في اليوم نفسه، فأخبرني أن بعض أنواع الحشرات الضارة كانت هي المسؤولة عن هذا التساقط، وأن هذه الحشرة أصبحت وباءً في ذلك الموسم في بيشة، حيث لا يتوقع أن ينضج البلح قبل شهر يوليو. بيعت في هذه الأثناء كميات كبيرة من هذا البلح

(١) إن أهل عسير وبخاصة النساء عرفن في القرون الماضية بفن زخرفة البيوت من الداخل وتزويقها بألوان جميلة مستمدة من نباتات وأشجار محلية، ومن يزور في يومنا الحاضر بعض القصور أو المنازل القديمة الموجودة في حواضر منطقة عسير، مثل: أبها، وخميس مشيط، والنماص، وبيشة، وسراة عبيدة، وغيرها فإنه سوف يلاحظ أشكال وألوان مختلفة رُسمت على جدران البيوت والقصور من الداخل، وفي الغالب كان نساء المنطقة هن اللاتي يقمن بعملها، بخلاف منازل الأمراء وأعيان البلاد فالجواري ربما كانوا من يقمن بهذه الأعمال. (ابن جريس).

ـبل أوانه في الأسواق وتم شراؤها بشغف. التـهمها رفـاقي بشره شديد وجدتها بلا نكهة.

كانت الثـمار من الصنف الذي يسـمى صفـري. تناولنا بالمناسبـة أول إنتاج عنب هذا الموسم وفي هذا اليوم بالذات في بيشة، ولكنها أيضاً كانت غير ناضجة وحامـضة بعض الشيء. كـما أخبـرت بأن الخوخ لا ينجح في هذه المنـطقة برغم المحاولات التي تمت لتشـجيع زراعته. يُزرع الليمون على نطاق مـحدود، غير أن تربة وادي بيشة بصـفة عامة لا تبدو مناسبة لزراعـة أشجار الفاكهة، غـير التمر. تنمـو الطماطم والبـاميـة -أصابع السـيدة- بسهـولة، ويوجد الـزعتر في مـعظم الحدائق. كـان المحصـول المفضل علفاً للجـمال هو البـرسيم، إلى جـانب القمح والشعير، والدخن (الذرة)[1].

يظهر الفـقر والكآبة هنا على المزارعين كما لاحظت في الديلـمي. كان عمق الماء هناك بالمناسـبـة في الآبار حـوالي ثمـاني قـامات، وكـان الجـزء الأعلى من الصهريج منغـمساً عبر كـثافة معتـبرة من الطين حتى أنه يصل إلى طبقـة صخرية رفيعة يوجد الماء في أسـفلها عند عمق قامة واحدة أو قامتين فـي الطبقة الحصوية ويوجد الماء هنا في الروشن على بعد عشرة أمـيال أعلى الوادي، عند عمق عشرة قامـات أو إحدى عشرة قـامة، علماً بأن البئـر الموجودة في مزرعتنا كـانت شاذة بوجود الماء فيها عند عمق ست قامات فقط.

كنا محظوظين في توقيتنا لزيارة بيشـة في منتصف الأسبوع. ذلك لأن سوق الروشن الأسبوعي. يقع أيام الأربعاء (سوق الربوع)، بينما يكون السوق في نمران

(١) توجد مـثل هذه المزروعات في معظم جنوبي البـلاد السعودية ،وتعتـمد في ريها على الأمطار، وأحـياناً على مياه العيون والآبار الجوفية. (ابن جريس).

المجاورة يوم الخميس (سوق الخميس). يُعقد سوق الروشن في فترة بعد الظهر، بينما يستمر سوق نمران طيلة اليوم. وعليه، فقد عدت للقص فترة راحة، لأجد الأمير جالساً في أبهة ومعه موظفوه الرئيسيون، والعديد أعيان البلدة، على طاولة طويلة من الطين خارج القصر في ظل جداره الأمامي. كما هي عادة النجديين.

كانت مناشط السوق الأسبوعي على أشدها في الساحة الواسعة، كما كان نشاط مجلس الأمير، ومن حين لآخر، يتجه فرد أو مجموعة أفراد من داخل الحشد الذي كان كبيراً، نحو الأمير ليعرض شكواه أو يعرض بعض الالتماسات. كانت كل حالة تعالج ويقطع فيها في التو واللحظة وعلى مرأى ومسمع العالم، وفقط في الحالات التي لا يمكن علاجها بهذه الطريقة فإن الأمير، يوصي أو يوجه المدَّعي بأن يرفع الأمر إلى القاضي[1]. يخصص يوم سوق الروشن تقليدياً لتنظيم المواشي، برغم أنني رأيت مجموعة من النسوة يجلسن القرفصاء على الأرض وهنّ يعرضن صحافاً للبلح الأخضر موضوعة أمامهن، لعله ضرب من الوجبات الخفيفة لمن يحتاج إليها. أما الجمال، والأغنام، والماعز، وبعض الأبقار فكل هذه قد اختلطت مع البائعين والمشترين، بينما يتحرك وكلاء البائعين يعلنون آخر مزايدة أو مناقصة تم عرضها حول هذا الحيوان، أو ذاك.

---

(١) الأسواق الأسبوعية كانت منتشرة في جميع أنحاء الجزير العربية، بل هي من الأساسيات في اقتصاديات الناس وتداولهم السلع التجارية. كما كانت هذه الأسواق ملتقى اجتماعياً وفكرياً وثقافياً تمارس فيها عدد من النشاطات الحضارية المختلفة مثل: ــ تبادل الأخبار بين الناس، وإعلان الأخبار الهامة التي تخص أمور الناس، كإعلان الحرب أو إيقافها، أو إقامة الحدود الشرعية، أو الدعوة إلى إقامة صلاة الاستسقاء وغيرها من الأمور التي تولتها مؤخراً وسائل الإعلام المختلفة وبعض المؤسسات الفكرية والثقافية والاجتماعية المتنوعة في أهدافها ووسائلها. (ابن جريس).

لحديث في حلقة الأمير بغموض إلى موضع البحث عن الذهب في جاورة لبيشة[١]، وأخبرني الأمير أن الرجل التابع لشركة المناجم الذي لى بيشة عن طريق رنية، لم يكن إنجليزياً بالمرة، ولكنه كان عربياً يعمل راً- مترجماً تصحبه مجموعة صغيرة من الهنود. لقد ذهبوا إلى موقع الطبقة ارزة فوق سطح الأرض الكوارتزية والتي تسمى العبلا (Abla) بالقرب من يفة، وهي رحلة تستغرق يومين بالجمال، ناحية الغرب من بيشة. لم تتمكن ارة من إكمال الرحلة، برغم أنها تحركت من بيشة، وعادت الفرقة على ظهر مال. تحرك رجل إنجليزي في هذا الأثناء، واسمه السيد لاركن (Larkin) تابع ركة ومعه فرقته راكبين الجمال، من الطائف وليس من تربة لدراسة البلاد اقعة في الطريق إلى أبها. لم تصل إلى بيشة أي تقارير عن هذه الحملة بعد.

كان أكثر الحضور المستمعين اهتماماً بهذه القصة هو سعيد بن كدسة، تاجر بيشة الرئيس، الذي دعاني فيما بعد لزيارته في منزله. سرنا راجلين عبر الروشن، لكي نصل إلى منزله، وكان الشارع عريضاً وغير مميز، مارين بمنزل كبير، كان قد امتلكه حديثاً وسكنه، ولكنه باعه مقابل (٩٠٠٠) ريال بعد أن شيد لنفسه بيتاً كأنه القصر في عام ١٩٣٤م، عند حافة مزرعة نخيل ممتازة تحتوي على حوالي (٤٥٠) نخلة، اشتراها كلها بمبلغ (٥٠٠٠) ريال. يقع هذا المنزل إلى مسافة فيما يلي النهاية الغربية للبلدة. كما أنشأ فيه حديقة على مستوى طموحي، لأشجار

(١) ولمزيد من الإيضاح عن المعادن، وبخاصة الذهب، في جنوبي الجزيرة العربية، انظر: الحسن بن أحمد الهمداني. **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء**. (الرياض، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ص٨٦ وما بعدها، وانظر أيضاً: تعليقات حمد الجاسر الجيدة التي أوردها على صفحات هذا الكتاب، بالإضافة إلى البحث الذي ألحق بنهاية الكتاب بعنوان: ــ (التعدين والمعادن في جزيرة العرب) ص ٣١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

الفاكهة وللخضراوات، داخل سور محيط بها ليزيد من أسباب الراحة. هذا المشروع كان لا يزال في مراحله الأولية. كان المنزل يتكون من طابقين مقسماً إلى قسمين: أحدهما، بالطبع، كان للنساء. يوجد فناء كبير، غير مسقوف، أمام غرفة الاستقبال الرئيسة لحفظ أفضل إبله، وبعض الأغنام، وفرس أُبّي الذي كان اسطبله، وكان على حق في أن يفخر به. كانت الغرف الأخرى، من حول الفناء، تستخدم لتخزين بضاعته، ذلك لأنه كان تاجراً على مستوى كبير. كانت غرفة الاستقبال كبيرة وبسيطة، كما أنه أخذني إلى الطابق الأعلى حيث غرفة ذات رسوم خشبية وذات حصائر غنية، وبها أعمدة من خشب الأثل، مزخرفة لدعم السقف المكون من شرائح بسيطة بلا طلاء، ومن الخشب نفسه. كانت الأعمدة منقوشة بتصاميم بسيطة ومطلية بالأسود وكانت النوافذ واسعة مصنوعة من الخشب- لم يستخدم الزجاج في بيشة بعد-، وكان الباب مطلياً بالأسود أيضاً.

لقد كان المنزل في تضاد مدهش مع جدران منازل جيرانه العارية، البسيطة، عديمة النوافذ، والجافة ويعلن منزله هذا عن أن مالكه رجل ذو أفكار حضارية. تعيش زوجاته الأربع في الجزء الآخر من المنزل، والذي لم أره بالطبع، كان لكل واحدة منهن شقتها الخاصة. ولكنهن فيما بينهن، أنجبن ابناً ذكراً واحداً، كان يراجع المدرسة المحلية في هذا الوقت[1].

هاجر سعيد إلى بيشة عام ١٩٢٠م من بلاد غامد في مرتفعات الحجاز حيث يعيش والده في العاصمة الظفير، حيث كان الحاكم في هذا الوقت هو تركي بن

(١) في عام (١٣٥٤ ـ ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤ ـ ١٩٥٣م) بدأت أولى المدارس النظامية في بيشة، وأبها، وجازان. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤هـ - ١٣٨٦هـ) (١٩٣٤م - ١٩٦٦م). (جده: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) الجزء الأول، ص٥٢ وما بعدها. (ابن جريس).

سدير، كانت خدمات البريد تصل كل أسبوعين من الطائف، وكانت إلى بيشة تصل عادة عن ذلك الطريق، إلاَّ إذا حدث أن كانت هنالك متجهة إلى الجنوب. لا توجد سيارات في بيشة ولا يوجد جهاز راديو

لقد نجح سعيد بن كدسة اقتصادياً، على أي حال، واستمتع بضربة حظ بثاً. في السابق كانت بلدتي وادي الدواسر والسليل تؤديان دوراً مهماً كأسواق علية لاستيراد البن من اليمن، وتوزيعه في مدن ومناطق نجد. ولكن حدث راً ولأسباب أميرية وجيهة، تم اختيار بيشة لتكون المركز الوحيد لاستيراد البن وزيعه لكل من نجد والحجاز. وقد تم منع مرور قوافل البن إلى وادي الدواسر. سبب هذا في إحضار طحين كثير لطاحونة سعيد ولطواحين مواطنين قليلين آخرين ريبين منه من منطقة غامد وهم الذين يكوّنون النخبة التجارية لبيشة[1]. لقد كان سعيد بحق رجلاً لطيفاً ذا أفكار متطورة ويبدو أنه محبوب بصفة عامة في المنطقة. فهو إلى جانب تجارته العادية، وكإضافة جانبية، مضارب في سوق العبيد، وكان نوع ما يعرضه من سلع معروف في كل مدن الجزيرة العربية.

كان معظم سكان الروشن، باستبعاد عنصر غامد، من بني سلول التابعين لشهران، بينما كان سكان نمران من معاوية، وقد أعطت اسمها أيضاً للسهل الكبير الممتد شرقاً من الروشن وسلسلة ملحة على بعد خمسة أو ستة أميال. كان سوق الخميس في نمران، الذي زرته مع سعيد، الذي كان راكباً فرسه، بينما كنت أقود

(١) كثير من رجالات غامد اشتهروا بممارسة التجارة حتى صاروا من كبار التجار في بيشة: ــ أمثال سعد بن كدسة وبعض وبعض إخوانه، وكذلك رجال آخرين في الطائف، وأبها، وجدة وغيرها من مدن المملكة. (ابن جريس).

سيارتي، أكثـر إثارة للاهتمام مقارنة بأحداث ظهر الـيوم السابق في الر
العنصر الرسمي غائباً تماماً، وكان الحشد ليس فـقط كبيراً، ولكنه كان أد
لقد عـقد السوق في مسـاحة كبيـرة مربعة، مبـنية خارج البلدة، وتحيط به
صفوف من مـتاجر مبنية من اللبن لا يزيد ارتفـاعها عن ستة أقـدام. كان ل
مسجده الخـاص، بالكاد أكثر ارتفاعاً من مسـتوى المتاجر، ويبدو- بالتـأكيد-
صف من المتاجر، أكـثر منه مكاناً للعبادة، لأنه ليس له مئذنة. توجـد بين المس
وخلفيـة المتاجر، على الجـانب الشمـالي للسوق المسوَّر، سـاحة مكشوفـة أخ
مخـصصة لسـوق النساء وقد رأيت فـيها عـدداً كبيـراً من النسوة يعـملن بائع
متـجولات ويعرضن للبيع أشـياء مثل الحـبال، والحصائر، والفلفل، والبـهارا
والتمر. وتوجـد على الجانب الشرقي للسوق ساحة أخـرى لسوق المواشي، حي
تباع الجـمال عن طريق الدلالة، ذلك لأن الأسـعار تتـفاوت من (٢٠) إلى (٨٠
ريالاً في هذا الوقت، فـإن (٢٠) إلى (٢٢) ريال تعـادل جنيـه اسـترليني ذهبي
واحد. وتباع الأغنام بسعر ريالين أو ثـلاثة ريالات وقد رأيت ثوراً جميلاً ذا سنام
يباع مقابل (١٤) ريالاً فقط. وقد استأجـر دليلي، القادم من رنية، جملاً ليعود به
إلى هناك بقيمـة (٣,٥) ريالات ونصف الريال فقط، وقد استـأجر الرجال الذين
صحـبوني من الخرمة، جـملاً بمبلغ ثلاثة ريالات في رنيـة، لأجل رحلة العودة.
يبدو أن الأسعار كانت منخفضة بصورة مدهشة في كل شيء[1].

لفت نظري أكثر من غـيره، ذلك المنظر المعروض على شكل رسوم متـحركة
في السوق، حيث تجتمع عناصر متـعددة لسكان البلدة، ورجال من جبال الحجاز،

(١) لقد ازدادت الأسعار، بالطبع، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. (المؤلف).

وأناس فقراء، كأن الواحد منهم- حقيقة، هو أفقر الفقراء. يبدو أن سمعتي في المناشط الخاصة بالتاريخ الطبيعي قد وصلت إلى الحشد، حيث إنني حينما كنت أقوم بالتقاط الصور الفوتوغرافية للمنظر أعلاه، كنت أجد نفسي محاطاً برجال متحمسين يسألونني كم سأدفع لهم مقابل ثعبان أو شيهم أو ذئب أو وعل. أما النسوة فإنهن كنَّ يحمْن على حافات الحشد، يظهر أنهن كنَّ متشوقات لرؤية أجنبي بينهن، وكان بعضهن سيدات شابات وكانت أعينهن لامعة، ولكن معظمهن كن متقدمات في السن، ومهزولات ومتعبات مع كفاح الحياة. يلبس معظمهن زي السَّمق، ولكن عدداً كبيراً منهن كنَّ يرتدين الأحمر، والقليل منهن قد ارتدين ما لونه أصفر، غير عادي، وجذاب. كلهن كن يرتدين الحجاب الإسلامي الأسود الذي يغطي الرأس والوجه ويمتد إلى الصدر. توجد في سوق الرجال بضائع تباع بالقطعة وبكميات وافرة، إلى جانب أشياء مصنوعة محلياً من الجلد، بالإضافة إلى ما يعرضه البقال وما شابه ذلك. كان منظراً مدهشاً غير أنه تذوق مبدئي لما يمكن أن نراه، من النوع نفسه، ناحية الجنوب.

قمت بزيارة سليمان الروَّاف في أحد الأيام، بعد تناولي الإفطار مع الأمير، وكان قد حدثني عن نظام الضرائب الذي كان يسيطر عليه. إلى جانب الرسوم التي تدفع على البن المستورد وغيره من البضائع التي ترد من اليمن، ذكر لي أن الضرائب المحلية تنحصر في الزكاة التقليدية، تجبى عادة في النوع برغم أنه يمكن قبول النقد المالي في بعض الأحوال. يؤخذ العشر على التمر ومحاصيل الحبوب الشائعة- (قمح، وشعير، ودخن). يُقدر المحصول في كل حالة بواسطة الخبراء الذين يرتبون مع رئيس القبيلة أو القرية كيفية تسليم نصيب الحكومة في الروشن، مقابل تعويض مالي. يباع هذا الجزء من المحصول لأعلى عرض، إلاَّ إذا أمرت

الحكومة المركـزية بجمع الحـبوب لأجل حملة عـسكرية أو ما شـابه ذلك. تقبض ضريبة الجـمال نقداً، بينما في حـالة الضأن والماعـز فإنه يتم أخذ ثـلاثة حيوانات لكل (١٢٩)- فقط واحد على أربعين من حجم القطيع[١].

اغتنمت فترة إقامتي هنا لأقوم بـجوله في الواحة وما يجاورها، لملء فراغات في استكشافاتي السـابقة. ينبعج الوادي، بالفعل، في السهل من السـفوح الجبلية على بعد مـيلين ونصف الميل جنوب غرب قريـة الروشن ويقف فوق هذه، وعلى حافة المجرى قصـر الصفار المنعزل ومجموعة النخيـل الصغيرة صفن. من الروشن توصلت إلى اتفاق للحصول على خدمات دليل جديد، يسمى فايز ومن فخذ بني معـاوية إذ أن له معرفـة كبـيرة بتضـاريس البلاد المحلية ولكـنه كان قليل الإدراك بالطيور.

كانت هنالك مـجموعـات من نخيل أخرى إلى جـانب مجمـوعة الروشن، نمران، والنغـيلة. كانت المزدهرة منهـا، هي: مقطر البـاقرة، إلى جـانب تل عارٍ منخفض يسـمى هضيبـة الذي يقال إنه كان موقـعاً لمستـوطنة قديمة (بني هلال). كانت جبلة مزرعة نخيل أخرى صغيرة، بينما يقع تقريباً في مقابل نمران، الشريط الطويل للنخيل الذي يتبع قريتي أبي شوك والحرف الصغيرتين.

توجد بعيداً عن الساحل، ناحية شـرق الجنوب الشرقي، مجموعة تلال حادة تسمى الصوابر (مـفرد الصايرة)، كان أحدها من كـوارتز أبيض، أو تقريباً ورديا، والذي اعتقـدت أنه منجم الذهب المحتمل! كان شاخصـاً إلى ارتفاع (٤٠٠) قدم فوق مسـتوى السهل، في شكل هرمي كامل، ويبعـد إلى مسافة سبعـة أميال من

(١) وهذا نص فقهي في زكاة البهائم. (ابن جريس).

مخرج الوادي ومن التلال السفحية. كان الصعود فيه صعباً ولكنني وصلت إلى القمة قبل دليلي الشاب الذي اعترف بتفوقي عليه وبإعجاب. كان أحد الصقور الداكنة اللون يحلق فوق القمة حين وصولنا إليها ولكنه سرعان ما هرب عنا، والشيء الوحيد الذي عثرت عليه أثناء بحثي عن عش محتمل بين الصخور البيضاء كان ريشة واحدة.

كان المنظر عند القمة واسعاً جداً، ونظرت بعيداً جهة الجنوب، فوق الطريق الذي سنسلكه غداً، في بلاد لم يرها أوروبي من قبل أبداً[1]. كان أبرز ما ظهر في هذا المنظر هو سلسلة جبال أبط، ذات القمة المسماة طويل العبد البارزة، إلى جانب سلسلة جبال الصوابر التي كانت مطوقة للمنظر من ناحية الجنوب. ويقف قريباً منا، على بعد ثلاثة أو أربعة أميال قوس تلال ملحة الذي يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ويرافقه خشيم الذيب إلى جانب كتلته الصخرية على مسافة نحو البعيد، وتقع إلى يساره.

لا يزال من الممكن رؤية صدعه بعيداً ناحية الشمال الغربي، بينما اكملت تلال مطوَّقة السفحية ومعها كتل مرتفعة أخرى من وقت لآخر، الحاجز من ناحية الغرب من الصايرة.

تقع بيشة في الوسط وتقع مزارع نخيلها خلف سهل عشبي شجيري هو حمى أو محميات رعي تابعة للحكومة. تناولت العشاء مع سليمان الروَّاف في ليلتي الأخيرة، ورافقني إلى معسكري للاستماع للأخبار والاستمتاع بالموسيقى.

---

(١) لم يكن فيلبي أول أوربي يشاهد هذه البلاد، وإنما سبقه بعض الأوربيين أمثال (تاميزيه) في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). (ابن جريس).

استمعت إلى نتائج سباق الدربي ليلة الأمس! نمت تلك الليلة على أنغام موسيقى سحب مياه الآبار والتي تعمل بواسطة جملين أو أحياناً ثلاثة جمال[١]، كان الجميع في صباح اليوم التالي، على استعداد للمرحلة التالية من الرحلة.

تناولت ومعي إبراهيم بن فرج طعام الفطور مع الأمير الذي أخبرني أنه قد بدأ حياته تاجراً للؤلؤ على مستوى بسيط ودون نجاح كبير، بسبب التغيرات الكبيرة التي صاحبت الحرب العظمى[٢] التي أثرت كثيراً على سوق اللؤلؤ العالمي ودفعته نحو الأسوأ. جاء سليمان الروَّاف مسرعاً وفي آخر لحظة للوداع، جالباً معه ثلاث من الماعز الحلوب كهدية وداع. كانت فكرة كريمة، ولكن، ربما من حظ الماعز، أنه كان لا يوجد لهما موقع في سياراتنا.

وهكذا انطلقنا نحو الجنوب. في اليوم التاسع والعشرين من مايو، وبذلك نكون قد التزمنا تماماً بالأحد عشر يوماً التي وضعتها في برامجي الخاصة بهذا الموقع. وصلنا إلى تل يسمى الشهيلا يقع على بعد مسافة ستة أميال من بداية انطلاقنا، وتوقفنا عنده، ويتكون من صخور بللورية مزرقة اللون الأبيض مع شقوق نحيلة كالخنادق من البازلت. يمكن رؤية قصر الأمير، أمامنا ناحية الشمال، كما تضمنت التلال المكوّنة في ترتيبها شبه الدائرة، والتي تقع أمامنا كتلة هضب المنابه التي تقع إلى يسارنا، بينما يقع إبط إلى الأمام من موقعنا وتقع مطوَّقة إلى اليمين. توجد في هذا الاتجاه الأخير تلال منخفضة يمتد فيها مجرى بيشة الذي لا نراه غير أنه ليس بالبعيد.

---

(١) وهو ما يعرف بالسواني لرفع المياه من الآبار وري المزارع. (ابن جريس).

(٢) الحرب العظمى: يقصد بها الحرب العالمية الأولى التى بدأت عام (١٩١٤م) واستمرت مدة أربع سنوات. (ابن جريس).

عبرنا بعد عشرة أميال قاع رافد عظيم هو هرجاب، الذي يأتي من الجنوب وينحرف هنا انحرافاً حاداً ناحية الغرب، في ممر رملي مكسو بكثافة بالشجيرات والحشائش والجنبات وحتى بعض الأشجار. توجد مزرعة نخيل صغيرة تسمى الحازمي عند نقطة التقائه مع وادي بيشة، قليلاً إلى الشمال الغربي من موقع عبورنا، وتوجد إلى أسفلها مزرعة مماثلة في مجرى بيشة تابعة لمدرا. تقع ترج بالقرب من الملتقى على جانب الوادي وعلى الطرف الآخر، وتوجد فوق الملتقى، نخيل الحيفة، واعر وسحام، بهذا الترتيب وباتجاه أعلى الوادي. يأتي وادي هرجاب إلى هذه النقطة عبر فجوة في تلال بني منبه إلى يسارنا.

يستمر طريقنا جنوباً فوق ممر رملي لنعبر لساناً منخفضاً لسلسلة مرياش المعترضة ثم إلى الدلتا العريضة لشعيب رنوم، وهو أحد روافد هرجاب وهو كثير الأشجار خاصة شجيرات الشار الطويلة والتي تكثر فيها طيور التمير بأعداد كبيرة وهي طيور مغردة. تتبعنا، فيما يلي الدلتا، الجانب الأيسر لرافد آخر هو شعيب سحي والذي يتحد مع هرجاب أعلى دنوم. كل شيء سار كما يرام، إلاَّ من حادث ثقب في إطار إحدى السيارات، في بلاد قفرة كئيبة. كنا قد أزعجنا بحركتنا طائر حجل الصخور التي فرت من أمامنا تتبعها ذريتها، كما كان تواجد طيور آكل النحل واضحاً للعيان.

كنا مطوَّقين طيلة الوقت بسلسلة سحي المنخفضة من كل الجهات، وقد تتبعناها مسافة ثمانية أميال حينما انحرفنا إلى ناحية اليمين نحو رافدة شعيب ميضر الذي يهبط من مستجمع الأمطار لبيشة- هرجاب على مسافة من هذا الموقع، وإلى ما يلي أرض مرتفعة تسمى وشعة. كان عرضها حوالي (٣٠٠) ياردة ولكنها

مغطاة بالشجيرات والحشائش. ولما كانت قمته مغلقة بسلسلة جرانيتية من جلاميد، فقد اجتزنا عن ممر منخفض، ضيق، للهبوط إلى شعيب الضور الذي يبدأ في وشعة، ويلتقي بهرجاب بالقرب من تل يسمى هضيبة.

هرب من أمامنا سرب صغير من طيور شاكور محلقاً فوقنا ليصل إلى بئر ابن سرّار، حيث خطَّطنا لقضاء الليلة. لقد قطعنا مسافة (٣٦) ميلاً من الروشن وقد هبطنا، دون شعور منا، حوالي (٨٠٠) قدم. لا بد وأننا قد كنا عند ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان هنالك بئران، إحداهما جافة غير أن لها فوهة رهيبة قطرها (١٥) قدم ومبطنة بالحجارة، توجد كمية كبيرة من المياه في البئر الثانية، وهي ضيقة ولها صهريج قطرها أربعة أقدام، أيضاً مبطنة بالحجارة، وكان عمق الماء فيها عند أربع قامات. ينتمي هذا المشرب إلى بني منبه وهو قسم من شهران، وبناء على ما ذكره دليلنا-القادم من بيشة- وهو من أبناء شهران يسمى حمود من فخذ واهب فهي بئر ضاربة في القدم. ذكر لنا ببساطة أن البئر قد تم حفرها وبناؤها بالاستعانة بالفيل[١].

إذ أسند حفر البئر إلى أنه من إنجازات بني هلال، فإن هذا القول سيؤخذ ليدل على أنه لا أحد يعلم من الذي حفر هذا البئر ومتى تم ذلك. ولكن الإشارة إلى الفيل حددت التاريخ. كنا حقيقة على الدرب المشهور، درب الفيل، الذي

(١) الأخبار عن درب الفيل لا زالت دارجه على ألسنة الناس إلى اليوم، وبخاصة الساكنين على مقربة من هذا الطريق الذي يخرج من اليمن إلى الحجاز، فتجدهم أحياناً يذكرون أسماء ومصطلحات تدل على اسم وموقع هذا الطريق فيقولون مثلاً: مشرب الفيل، أو ممر الفيل، أو ما شباه هذه الأسماء التي تدل على الطريق التي مرت منها جيوش أبرهة الحبشي ذاهبة نحو الحجاز. (ابن جريس).

سلكه أبرهة وجيش الأحباش في الاتجاه المعاكس عام ٥٧٠م، العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وكان هدفه هو الهجوم على مكة. حسب علمي، فإن تلك الحادثة هي آخر مناسبة شوهدت فيها الأفيال في الجزيرة العربية. وعليه، فإن هذا البئر لا بد وأن يكون عمرها الآن ١٣٦٦ سنة، وربما يرجع تاريخه إلى الأيام المبكرة لملكة سبأ التي استخدمت أيضاً الأفيال في سفرها إلى سليمان، حوالي (٣٠٠٠) عام مضت. يشير العرب إلى درب الفيل هذا أو إلى من افتتحه بأسعد كامل وهو التبع، حاكم مشهور على اليمن حوالي (٤٠٠)م والذي تحت اسمه، تم توضيح عدد من أقسام الطريق لي في عام ١٩٣٢م أثناء رحلتي الشمالية من بيشة. لقد كنا نتبع درب الفيل القديم في هذه الرحلة الجنوبية فوق كل المسافة وحتى هذا الموقع، لأنه لا يوجد طريق ملائم للحركة الثقيلة بين هرجاب وبيشة. يقال إن هذا الدرب من هذا الموقع، يتجه أكثر نحو الجنوب الشرقي، عابراً هرجاب عند بئر آخر تسمى عليان ثم يستمر على الطريق الصحراوي بعيداً عن هذه البلاد التلالية السفوحية الصعبة.

كانت الليلة مضيئة بالقمر ولا توجد حشرات كثيرة، عدا البعوض، بالقرب من البئر. ولهذا السبب فقد نصبنا معسكرنا بعيداً تماماً عن البئر، عند طرف الوادي المسمى، شعيب الضور والذي يتصل في نهاية الأمر مع شعيب الزو في طريقه إلى هرجاب. بدأنا رحلتنا في اليوم التالي بالتسلق إلى قمة جبل ارتفاعه (٥٠٠) قدم يسمى أم ومر على أقل من ميلين ناحية الجنوب من معسكرنا. كانت البلاد المحيطة، لسوء الحظ، مغطاة بالغمام وكانت العلامات الأرضية غير واضحة. كانت البلاد المعترضة صخرية ومقطعة إلى متاهة من مجاري التصريف، كان أكبرها شعيب تلغ عند سفح أم ومر وكانت كلها تجري ناحية هرجاب.

لا يوجد شيء مثير للاهتمام في هذه البلاد المحيطة، باستثناء اللمحات التي التقطناها للصحراء، بعيداً ناحية الشرق، إلى ما يلي هرجاب مع مواقع مرتفعة هي: الرهوة، والصنقة، والأخضرين، ونمرة، وحفايلة في مجملها مكوِّنة حاجزاً من أرض مرتفعة تفصلنا عنها. قمت بصيد الطيور في هذه المنطقة ومن حولها، وأدخلت إلى الكيس طائر حجل ودرسه، بينما كانت طيور القداف مروحية الذيل، والخطاف وآكل النحل وطائر الشمس متوافرة. لم نلحظ أي علامات للحياة حول البئر أثناء الليل. ولكننا رأينا قطيعاً من الضأن من قمة أم ومر، كانت بالفعل تشرب من هناك. لا بد وأن الرعاة كانوا قريبين منا بما فيه الكفاية ليحسوا بوجودنا ولعلهم ربما لم يكونوا راغبين في الاتصال بنا. إذ ربما دار بخلدهم أننا جباة الزكاة.

كان رفاقنا قد استقروا لإعداد طعام الإفطار، حينما كنت أنا وحمود نلقي نظرة عامة على أم ومر، اشتركنا معهم في تناول الإفطار قبل أن نواصل الرحلة. كنت قد قمت بجمع كمية كبيرة من النباتات من الجبل، وهذه يجب أن تضغط وتعلم. عبرنا الآن مجرى تلع ورافده كضان لنجد أنفسنا في ممر صحراوي تنتشر من فوقه في كثافة جلاميد جرانيتية كأنما قد جلس في هذا المكان عملاق هنا وبدأ يفتت الجبل إلى قطع صغيرة ويقذف بهذه القطع الصغيرة في كل مكان. اجتهدنا للخروج من هذه المنطقة، لنصل، بعد ثمانية أميال إلى الخط الفاصل بين نظام تلع الذي كنا فيه، ووادي السريِّن وهو رافد ينساب شرقاً إلى هرجاب. كان كل ما حولنا تلال وتلال أكثر وأكثر، غير أن أهم ما يمكن ذكره هنا هو كتلة باح[1] التي تقع إلى الجنوب الغربي وعلى بعد (١٢) أو (١٤) ميلاً، إلى حيث ينساب مجرى

(١) ويعرف باسم (جبل باح) (ابن جريس).

بيشة، بناء على ما ذكره لي دليلي. يحتوي نظام تصريف السريّن على أنهار، متوازية عديدة ويقع وراءه ذلك الوادي المزدوج الذي يسمى سيلين وفيما يلي هذا أيضاً تقع مختبية وكذلك معمَّر وكلها خطوط تصريف تنحدر من التلال المنخفضة إلى الغرب لتتقارب في نهاية الأمر في الخط الرئيس للسرين قبل اتحادها مع هرجاب. تقع فيما يلي هذا الوادي، بلاد يكثر فيها الجرانيت وعلينا أن نقطعها فهي بلاد صعبة، خشنة وجرداء ولكنها منحدرة إلى الأمام ناحية شعيب كتنه وهو رافد آخر لهرجاب يمكننا رؤية واديه الذي بدا مرصعاً هنا وهناك بأشجار ضخمة، وعلى بعد ميل واحد، ناحية الجنوب الشرقي.

كان سفرنا صعباً في كتنه وذلك لأن قاع الوادي كان طينياً، ومشققاً بواسطة السيول، وكان مغطى بالجنبات الخفيضة. تركنا كتنه بعد فترة وجيزة وتتبعنا رافده شعيب رجعال متجهين نحو كتلة جرانيت بارزة جداً تسمى ضور ابن سرار. أصبح سيرنا هنا صعباً جداً وفي بعض المناطق كان طريق السيارات قد محته السيول تماماً. استدرنا حول تل الجرانيت، عندما اقتربنا من القمة، وذلك عند منتصف الطريق، مارين بكتلة جلمود ضخمة ساقطة على الأرض تسمى جلبة، لندخل بعدها إلى وادي شعيب سمران الثانوي الذي يرتفع إلى كتلة ضر ومن ثم يجري مباشرة إلى هرجاب.

يقال إن هنالك بئراً قديمة اسمها كومخة، في موقع ما في الصحراء إلى الشرق معادلة لهذا الموقع وعلى طريق درب الفيل وفي وادٍ يسمى نهر ينساب إلى المسيرق.

قادنا وادي آخر صغير يسمى حشة إلى حافة سهل واسع ينحدر إلى الأمام حيث يوجد خط تصريف كبير يسمى خلائل وتحيط به تلال عديدة مكوَّنة نوعاً من

الأحواض المستديرة وكـان منفذه تجاه هرجاب. مررنا كذلك بـزوج من خيام البدو على حافة هذا الممر، فيهما بعض نسوة وبعض كلاب فقط، وقد جلب لنا كرمهن المعروف اللبن، وفي المقابل دفعنا إليهن بعض النقود. كان رجالهن في المراعي مع الأغنام، ووجود هذه الخيـام أفادنا بأننا أصبحنا نقترب تدريجـياً من المساكن. يقع بعيـداً ناحيـة الجنوب الغربـي جبل منعـا في سلسلة الحاجـز الرئيس في بلاد بني شهر، لا عـلاقة لهذه القبيلة مع قبـيلة شهران. يقع جبل باح الآن ناحيـة الشمال الغربي، بينما كان تل حـرب الذي يقع قليلاً ناحية الشمال الغربي، مـعلماً أرضياً آخر على الجـانب القريب لمجرى بيـشة، كذلك كـانت قمة قـمعة ناحـية الجنوب الغربي، كمـا ظهرت إلى البعيد نقـاط سلسلة الحجاز الرئيسـة التي تدعى لحية أو ضحية. كان النسوة اللائي أكـرمننا ينتمين إلى فخذ كود التابع لشهران من منطقة واحة خيبر[١].

امتدت أرض ممر خلائل إلى مسافة ثمـانية أميال عبر طريقنا وانتهى إلى أرض سهلة مـررنا من فوقـها لنواجـه بوادي هرجاب نفسـه، وبكل عظمتـه فهـو غابة لأشجار سدر حقيقية تحتل مـساحة كبيرة على جانبي بطن السيل الرملي العريض. عسكرنا هنا، تحت الأشجار، بعد أن سافـرنا لمسافة (٤٠) ميلاً من بئر ابن سرار، وحوالي (٩٠) ميلاً من بيشة. لقد كان المنظر -حقـيقة- جميلاً وغير عادي. يبدو الوادي هنا منبسطاً على الجانبين ليكوِّن بصفة رئيسة غابة ضخمة من أشجار السدر مع وجود عنصر متواضع من أشجار الطلح. كـانت هذه البقعة جنة شائعة للطيور التي تعود للأنواع نفسها التي شاهدتها في عشيرة، كما سمعت أثناء الليل الصرخة المألوفة لطائر الزقزاق -يسمونه محليـاً سماق أو كروان-، والذي كنت قد لاحظته

(١) قبيلة كود إحدى القبائل الرئيسة لشهران. (ابن جريس).

عند بئـر ابن سرَّار. كان ارتفـاع أشجـار السدر (٣٠) أو (٤٠) قدمـاً وكانت مـورقة بكثافة. لا بد أن يكون ارتفاعنا هنا (١٤٠٠) قـدم أعلى من بيشة وربما (١٢٠٠) قدم فوق ملتقى هرجاب- بيشة، إلى ارتفاع (١٣) قدماً لكل ميل نقطعه في المتوسط.

كان وادي بيشة، وعلى مـسافة (١٢) ميلاً ناحية الغـرب، معلَّما بنقطتين من سلاسل جبلية منخفـضة تسميان ثمد يجري عبرهما الوادي، كـما يُرى إلى البعيد ذلك الخط الشاحب للجـبال العالية ذات الـقمم التي ورد ذكرها من قبل. سـافرنا مبتعدين عن وادي هرجان وذلك حين قـمنا بمواصلة الرحلة في آخر صباح، لآخر أيام شهر مايو، عـبر رافد يسمى عنت وهو ينساب متعـرجاً في اتجاه جنوبي. كان عنت مسيلاً، موحـشاً، مغلقاً، صعب المراس، غير أنه بَعد مسافـة حوالي خمسة أميال، انفـتح على أرض واسعة خاليـة من النبات ما عدا عـدد من الأشجار التي تجمعت عند ثقوب الماء عند فضية.

لم تكن هذه الآبار حقيقة، بل كـانت زوجاً من ثقوب قد حفرت في الوادي إلى عمق قدمين وكانتا ممتلئتين بالماء. كان هنالك قطيع كبير من الأغنام يشرب من عندها في ذلك الحين، وكـان الرعاة كعـادتهم، كرمـاء باللبن، الذي كان منعـشاً جداً، بخاصة بعد قيادة شـاقة للسيارات أعلى هذا الوادي. خرجت شاحنتنا، عند هذه النقطة، من مسيل عنت لنتـتبع الرافد عطيـفة إلى سـفحه علـى مسـافة ميل أو ميلين، ثم عدنا إلى دخول مسيل عنت في موقع آخر من مجراه، وجدنا أنفسنا عند قمة مسيل عنت فوق مجموعـة تلال تسمى أدمان تبعد حوالي ميل واحد من هنا إننا نقف على حافة مـستجمع أمطار كبير الأهمـية، ذلك لأن البلاد التي تقع خلفنا تصب في هرجـاب ومنه في نهاية الأمـر في وادي بيشـة، أما الأرض التي أمامنا فهي منحـدرة إلى أسفل، إلى شعيب الدهابيـة، الذي ينساب إلى وادي نهر

العريض، والذي يمكن رؤيته من الواجهة، أمامنا، والذي بدوره سيصب في وادي المسيرق الذي هو أحد روافد وادي تثليث، وهو الوادي الثالث وربما الأعظم بين الأودية الرئيسة في جنوب غرب نجد.

وصلنا الآن إلى الحد الفاصل بين بيشة وتثليث، ونستطيع أن نرى أمامنا بوضوح نخيل قضَّة وهي في وادي المسيرق. وتقع، في التلال الصعبة إلى الغرب من موقعنا، وبجوار هضبة تسمى ركيبة، القمة الحقيقية لوادي هرجاب ولا يبعد مجرى بيشة كثيراً منها. يتصل شعيب الدهابية مع وادٍ على بعد ميلين ناحية الشمال الشرقي، ويجري وادٍ إلى سلسلة خسا وهناك يلتف ناحية اليمين إلى المسيرق. وتقع البئر القديمة كوماخه في مجراه، وقد ورد ذكره من قبل، وكنا مرة أخرى على درب الفيل القديم. يمكننا رؤية القمم الجرانيتية على حافة وادي المسيرق، وكان لبعضها أشكال غريبة، وهي على شريط ممتد من تجاه الجنوب الشرقي إلى الجنوب: مسقه-وهذه من ثلاث نقاط-، جمرة-ذات قمة مزدوجة مسطحة كالطاولة-، عمود شتبة، وعدمان وثلاثتهم إلى الجنوب الشرقي. تقع كتلة شمران في الاتجاه نفسه، ولكن إلى البعيد، وهي سلسلة جبلية معتبرة إلى جانب الهرم الكوارتزي أم القصاص ذات القمة المسطحة وشعة المسطحة القمة كالطاولة أيضاً.

كنت أجلس، ومعي دليلي على كومة من الحجارة على أرض مرتفعة لتعليم اتجاه مياه فضية، أثناء قيامي بتسجيل هذه الملاحظات. كنا جالسين هناك لمدة من الوقت، حينما-وفجأة ومن أسفل منا- طارت أنثى حجل مطنطنة. كنت، بالطبع، متأخراً جداً في استخدام بندقيتي، غير أن شقشقة ضعيفة صدرت من ركام الصخور نفسها التي نجلس عليها، حيث كانت هنالك (٤) أو (٥) فراخ

مختبئـة. وبصعوبة شديدة حررت اثنتين منها لتضاف لمجـموعة عيناتي وكان ذلك كافيـاً للتعريف العلمي. كـانتا من نوع السيسي الشـائع في هذه المناطق. تحصلت كذلك على قنـبرة صحـراوية، بينما كنت قد وضـعت من قبل وفي الأكـياس من فضية ووادي هرجاب بعضاً من عصافير الصخور. ظهر في وادي هرجاب نوع من الطير محلي جديد إلى جانب الباز، والعصافير، والقنابر، وبعض الطيور الصغيرة النساجة. كانت هذه المقاطعة، في الحقيقة، أرض صيد للطيور مربحة.

يقع مسارنا الآن تجاه الجنوب الشرقي واخترقنا قـبل فترة وجيزه شعيب دهابية وشعيب نهـر وبالتتالي لنجد أنفسنا في بلاد ذات بـروزات جرانيتية صعـبة، مررنا فيـها برعاة من بني واهب (شـهران) بقطعانهم. إنه هو الفـخذ نفسـه الذي مررنا ببعض منسـوبيه وأغنامهم عند موقع الشـرب في فضية. عـبرنا، في هذا الموقع، عدداً من روافـد نهر بما في ذلك مسقـه الذي توجد به بئر بالاسم نفـسه تقع على بعد ميل واحد من الـطريق، ناحية اليسار. يوجد إلى ما وراء هـذه المسايل شعيب أثب وهو شعيب مـتعدد المجاري، ويهبط من جـمرة ليتصل المسـيرق بالقرب من نخيل القضَّـة وتتبعنا، فيـما يلي هذا، ومرة أخرى، مجـرى شعيب حمـيته الذي يتحـد مع المجرى الرئيس نفسـه قليلاً إلى أسفل مع واحـة خيبـر، والتي ظهرت سريعاً أمامنا إلى ما وراء شعيب تلح، وهو رافد آخر لمسيرق. علينا أن نعبر خلال كتله تلالاً جرانيتـية رهيبة تسمى غار وذلك قـبل أن نصل إلى حافة الوادي، وقد قـررنا التوقف عنـدها، عند منتصـف النهار، في صـحـبة بعض الأعـراب ذوي القطعان مـن قبيلة كـود، والذين انتشـرت خيامـهم وأغنامهم بين هذه الصـخور العظيمة.

أصبحنا الآن عند الطرف الجنوبي لمحافظة بيشة. التي تتضمن كلا من وادي خيبر ووادي المسيرق. كانت كتلة الجرانيت هذه على ارتفاع أقل من (١٠٠) قدم فوق مستوى السهل، وقد يسرت لي مسحاً أولياً للواحة. كان عرض الوادي هنا ميلاً واحداً تقريباً، حتى حافة سلسلة جبال شمران التي ينبعج من خلالها مسيل صغير يسمى شدا داخل الوادي الرئيس في نقطة تقع ناحية الجنوب الشرقي. كان فم الوادي مغلقاً تقريباً بمزرعة نخيل صغيرة ولكنها كثيفة وبداخلها قصور قليلة. تكوّن هذه المزرعة قرية شع الصغيرة. يعرف الوادي الرئيس أعلى هذا الموقع باسم شعيب السليل، ويطلق اسم المسيرق محلياً على الوادي من خيبر إلى أسفل. هما في حقيقة الأمر وادٍ واحد. تتكون خيبر من مجموعة قصور منعزلة متفرقة في مزارع النخيل، أكثر من كونها قرية. يتكون قسمها الرئيس من أحد عشر قصراً مع مجموعات مبعثرة من النخيل والأثل تقع في منتصف الوادي، ممتدة إلى حوالي الميل الواحد من النهاية إلى الأخرى. ولا يبعد مركزها بأكثر من (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة عن صخور غار التي يجري فيما وراءها مجرى السيل الرئيس. توجد قصور وأشجار نخيل واسط على بعد ميل واحد من موقعنا، وتجاه مجرى أسفل الوادي، وتابع للمجموعة الرئيسة، وأكثرها أزهار في الواحة، بينما إلى أسفل قليلاً يوجد كل من الحامض والقضة في هذا الترتيب.

كان هذا كل ما يمكن أن يشاهد في الواحة من غار، غير أنه توجد سلسلة من مزارع نخيل صغيرة مماثلة وعدد من القصور في الوادي تجاه مجرى أسفل الوادي لقضّة وهي: الأخضرين، وبادية، والقوز، وحسو، والعين، والبَغَثُ، والمريفق، والحرفين، والجزيرة. وهذه الأخيرة تبعد حوالي (١٣) ميلاً من قضّه والبقية تتوزع على مراحل بينهما. يجري الوادي، فيما يلي جزيرة إلى مسافة

(١٢) أو (١٣) ميلاً في مجرى يسمى الثَفْنُ وهو موقع اتصاله الفعلي مع وادي تثليث. يكون طول وادي المسيرق على هذا الأساس حوالي (٣٠) ميلاً باتجاه أعلى الوادي اتجاه النهر، من نهاية مجموعة خيبر الأساسية، وتمتد الواحة كلها، وبشكل متقطع فوق امتداد طولي يقدر بـ (١٧) ميلاً. ومعظم سكانها من بني واهب (شهران). وقد كان رئيسهم، في هذا الوقت الشيخ هيف الفوية. كما يبدو احتمال وجود عناصر من كود بين السكان برغم أن هؤلاء بدو بصفة قاطعة. يرأس قبيلة شهران سعيد بن مشيط، والذي سنقابله ببلدته فيما بعد.

لقد عثرت على عدد قليل من النقوش الثمودية إلى جانب رسم بدائي لجمل وذلك أثناء تجولاتي بين صخور الغار، أخبرني حمود بأنه توجد تسجيلات مماثلة على جبل جمرة الجرانيتي الذي ذكرناه من قبل. وبعد أن أمضيت بعض الوقت في نسخ هذه النقوش والرسوم إلى جانب البحث عن الطيور التي شاهدت منها: الهدهد، والعوسق وبعض العصافير، وكذلك شاهدت نوعين من الغداف وعدداً من القنابر المتوجة في مساحات معتبرة في حقول الجذامة التي تم حصادها منذ فترة طويلة. مررت وزملائي على الواحة، حيث عسكرنا في المروج المعشبة المريحة عند نهاية القرية في اتجاه أعلى الوادي. كانت توجد فوقنا بركة كبيرة ممتلئة بمياه السيول، وكما لاحظت أن حقول الذرة الصفراء كانت كلها ذات حواجز للإمساك بالماء لري الأحواض. يشاهد بوضوح كمية كبيرة من المياه في الطبقة السفلى في هذا الوادي ذلك لأن معظم الآبار كانت عبارة عن نقر مفتوحة تم حفرها في آراضٍ طينية إلى عمق (٤) أو (٥) قامات وبلا جدران. وتمتلئ هذه النقر مع كل سيل بالطمي ولكنها سهلة الحفر مرة أخرى.

كان الناس فقراء إلى حد بعيد ولكنهم ودودون وكرماء برغم شح ما لديهم. حينما كنت أتجول في الواحة حاملاً بندقيتي، رأيت امرأة تعتني ببعض الثيران،

وتنظر ناحيتي في كآبة كانت بحق امرأة شابة ذات عيون جميلة وجبين جميل ومرتدية سمق ملتصق، أوضح كل تقاطيع جسمها الجميل. كانت تلبس أيضاً عصابة للرأس من الفضة، ويبدو بوضوح أنها ذات مكانة في المجتمع المحلي. كان اسمها حمرا، وقد أخبرتني به في الوقت المناسب، حينما أشارت بخجل إلى حمامة تجثم على إحدى شجيرات نخيلها. أطلقتُ النار على الحمامة وقدمتها لها فكان لي شكرها الجزيل وابتسامتها الساحرة. بادرتني فتاة أخرى بالكلام، كانت جميلة أيضاً، وجريئة، ولكن كانت من درجة أدنى مقارنة بالأخرى، وذلك يبدو من ملابسها التي كانت بالية وكان لونها أصفر متسخ- اللون الطبيعي لقشرة الرمان- طلبت مني أن أهديها طائراً أيضاً، ولكن كان لا يوجد لديّ طائر، غير أنها فرحت بأخذها لبعض البنسات. وامرأة ثالثة أكبر منهما سناً جاءت من داخل بعض الخيام المنتشرة أسفل النخيل، سألتني عن عصفورٍ كنت قد صدته لأجل مجموعتي الخاصة غير أنني قدمته لها عن طيب خاطر. كان تجوالي في مزارع النخيل بخيبر في إجماله، تجربة مسلية.

خرجت مرة أخرى، في الصباح، إلى القسم الثاني من القرية واسمها وسيط. يقع هذا القسم في الوادي قريباً من مجرى السيل وعلى جزأين يفصلهما سهل صعب عرضه حوالي (٤٠٠) ياردة. كانت كل الحقول هنا ذات حواجز، كما هو الحال في خيبر، لأجل الإمساك بالماء. يقع القسم الثاني هذا تجاه أسفل الوادي بالنسبة للقسم الأول، ويتكون من مزرعة صغيرة لأشجار النخيل، وكانت المنازل في كليهما صغيرة وحقيرة. كانت الحقول مقسمة أيضاً إلى مربعات صغيرة لأجل الري الملائم. كما بدت شجرة زيت الخروع مزدهرة بكثافة في هذه القرى، وفي بعض الحالات نمت إلى حجم الأشجار الحقيقية. رأيت بئرين في الوسط

وبهما الماء عند عمق أربع قامات وبئراً ثالثة كان يحفر بالفعل في تكوين بازلتي- عند عمق خمس قامات- حينها، بجوار الجانب الأيمن للوادي. كان النساء يقمن بالعمل، وأثناء مروري بالقرب منهن، دعتني إحداهن أن أُقْبِل لتناول بعض اللبن. ذهبت إليهن، فقط لأتبين أنهن حقيقة ليس لديهن لبن، ولكنهن أردن أن يرين الرجل الذي كان يطلق النار على طيورهن. وقفت لحظة لأتحادث معهن، ووجدت أن النسوة الثلاث كن يمثلن ثلاثة أجيال للأسرة نفسها. الابنة، والأم، والجدة. ربما لا يفصلهن أكثر من (٣٠) سنة، عن السيدة الكبرى، وقد تكون الصغرى أقل مني سناً، كما كانت في صحة سليمة ومعافاة.

كان إنتاج التمر في هذه الواحات من صنفين- صنف صغير يسمى واغ وصنف أكبر يسمى صفري وهما النوعان الرئيسان لمزارع النخيل في بيشة[1]. كانت الواحة الرئيسة، حيث عسكرنا، محمية من السيول بحاجز منخفض من الرمل عبر مجرى السيل في اتجاه أعلى الوادي، ويوجد حاجز مماثل أسفل المزارع الرئيسة ليمسك المياه أطول فترة ممكنة لأغراض الري. رأيت من الطيور إلى جانب اليمام والهدهد-الأخير هذا منه أعداد معتبرة- بشنون البقر (غرنوق) بالقرب من البركة وأيضاً حصلت على خرشنة، كما يكثر الحمام المحلي الشائع في الجزيرة العربية، وهو الذي يزور المسجد الحرام في مكة وفي أسراب كبيرة.

كان الظهر قد ارتفع حين غادرنا خيبر لبداية المرحلة التالية لرحلتنا عبر مجرى السليل الذي يمكن أن نعد جانبه الأيمن على امتداد سلسلة جبال شمران حدوداً جنوبية لمنطقة بيشة. يعبر الطريق بطن السيل من أعلى البركة ويصعد الوادي في اتجاه الجنوب الغربي، ثم يدور بعد مسافة ثلاثة أميال أكثر ناحية الجنوب والجنوب

(١) التمر الصفري من أهم وأكثر أنواع التمور التي تشتهر بها بيشة. (ابن جريس).

الشرقي في المرتفعات العليا للمجرى، لقد أصبح المجرى هنا ضيقاً ومخترقاً السفوح الجبلية للبلاد. تركنا السليل بعد مسافة ستة أميال أخرى في الاتجاه العام نفسه، إلى بعض التلال التي تسمى روضان، ثم اتجهنا شمالاً إلى شعيب معو[١]، حيث وصلنا بعد ميلين أعلى الوادي والحد الفاصل لمنطقة بيشة. كنا على ارتفاع (٣٥٠) قدماً من خيبر وحوالي (٢٠٠٠) قدم من الروشن، وحوالي (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر.

ألقينا النظرة الأخيرة على خيبر والعلامات الأرضية التي ألفناها إلى شمال هذه البلاد. يقع أمامنا الآن مرتفع من الأرض ذو أحواض واسعة (أغراف) في وسطه. فنحن الآن على أطراف منطقة جديدة هي: خميس مشيط.

(١) وربا: أطلق على هذا الشعيب أيضاً اسم (شعيب خذام). (ابن جريس).